دور القصة القرآنية في بناء قيمة الإيجابية
- سورة يوسف أنموذجاً-

د. "محمد خير" علي ضايق النمرات*

تاريخ وصول البحث: 2016/11/13م **تاريخ قبول البحث: 2017/2/14م**

ملخص

تتناول هذه الدراسة البحث في مفهوم الإيجابية من منظور اللغة العربية وعلم النفس والقرآن الكريم، وكذا البحث في أهميّة الإيجابية وآثارها في حياة الأفراد، ثم تبين من خلال قصة يوسف عليه السلام دور القصة القرآنية في بناء الإيجابية وتعزيزها لدى الأفراد.

الكلمات الدالّة: الإيجابية، القصة القرآنية، سورة يوسف.

Abstract

This study handles the concept of positivity from the viewpoint of Arabic language and the Qu'ranic psychology. Additionally, the importance of positivity and its effects on the individuals, then, to reveal through Youssef's story -peace be upon him- the role of the Qu'ranic narrative in the building of the virtue of positivity as well as strengthening it.

المقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه الحق، والصلاة والسلام على سيّد الخلق، وبعد:

فقد سمّى اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ روحاً –وبالرّوح تكون الحياة– فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[الشورى: 52]، وقد عدَّ الله تعالى التجاوب والتفاعل مع آيات الخطاب القرآني بمثابة إحياءٍ للفرد فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[الأنفال: 24].

﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[الأنعام: 122].

وهذا الإحياء الذي يحدثه التجاوب مع آيات القرآن الكريم يتجلى بالفاعلية في دروب الخير والإصلاح، وهو ما نسميه بالإيجابية، إيجابية تنبثق من أعماق النفس الإنسانية التي يتغلغل فيها القرآن، ذاك أن أيَّ تغيّر أو حراك للفرد نبصره بأعيننا لا بد وأن يكون قد مر بتفاعل في مختبر النفس، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾[النساء: 63]، وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرّعد: 11].

ومن هنا يتضح لنا دور الخطاب القرآني في بناء الإيجابية في نفس المسلم والفاعلية في سلوكه، وكما يقول سيّد رحمه الله فإن "القرآن كله معرض هذه الإيجابية، وهي أساس التصور الإسلامي –بعد التوحيد– وهي التي تتجلى فيها حقيقة التوحيد؛ فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير وليس مجرد التوحيد السلبي الذي يصفه أرسطو، أو يصفه أفلوطين"[(1)].

وفي هذه الدراسة فإنني أسلّط الضوء على الدور الكبير الذي يؤديه أسلوب القصة القرآنية في بناء الإيجابية لدى الأفراد،

* باحث.

وذلك بعد أن أكون قد جلّيت مفهوم الإيجابية وأبرزت أهميته، سائلاً المولى ﷻ أن يلهمني الرشد والسداد.

مشكلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما دور القصة القرآنية في تعزيز قيمة الإيجابية لدى الفرد المسلم؟

وينبثق عن هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية:

أولاً: ما مفهوم الإيجابية في ضوء اللغة العربية وعلم النفس والقرآن الكريم؟

ثانياً: ما أهمية الإيجابية وآثارها في حياة الأفراد؟

ثالثاً: ما دور أسلوب القصة القرآنية في تحقق الإيجابية في حياة الأفراد من خلال قصة يوسف؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يأتي:

1. بيان مفهوم الإيجابية.
2. إبراز أهمية الإيجابية وآثارها في حياة الأفراد.
3. بيان دور أسلوب القصة القرآنية في تحقيق الإيجابية من خلال سورة يوسف.

الدراسات السابقة:

لم أعثر –في حدود اطلاعي– على دراسة علمية أو كتاب تناول دور القصة القرآنية في بناء قيمة الإيجابية سوى ما ورد في فصل الإيجابية[2] من كتاب البوصلة القرآنية للدكتور أحمد خيري العمري، حيث تناول قصتي يونس ويوسف –عليهما السلام– من حيث أثرهما في تعزيز عنصر الإيجابية في نفس النبي ﷺ.

ولكنه في حين أطال الوقوف مع أحداث ومضامين قصة يونس ﷤، مبيناً الدور الكبير الذي أدته القصة في تحذير النبي ﷺ من السلبية، فإنه لم يتعرض في قصة يوسف ﷤ لأحداثها وما حملته من مضامين ومعاني إيجابية، وإنما اكتفى بذكر لمحة موجزة عن ذلك، مركزاً جهده فيها على الدور الإيجابي الذي أدته القصة بشكل عام في بث الأمل في نفس النبي ﷺ بالنظر إلى أمرين:

الأول: الواقع الصعب الذي نزلت فيه، حيث إنها نزلت في ظل تزايد الأذى وانسداد أفق الدعوة الإسلامية آنذاك.

الثاني: ترتيب نزولها، حيث نزلت بعد سورة هود التي حملت آياتها مشاهد مفزعة لهلاك الأقوام السابقة، مما أشعر النبي ﷺ بدنو مثل هذا المصير لقومه، سيما وقد شابهوا تلك الأقوام بالكفر والعناد، فكان نزول قصة يوسف (سورة يوسف) على النبي ﷺ بمثابة إنعاش لمشاعره وتغيير لمعطيات تفكيره الذي غلب عليه آنذاك مشاهد الهلاك، فغدا النجاح ممكناً ولو في مكان آخر.

والجديد في هذا البحث هو:

1. التأصيل العلمي لمفهوم الإيجابية من منظور اللغة العربية وعلم النفس ثم القرآن الكريم.
2. إبراز المضامين الإيجابية التي حفلت بها أحداث القصة وتفاصيلها.

منهجية البحث:

1. المنهج الاستقرائي: الذي يقوم على جمع المادة العلمية من مظانها ومصادرها المختلفة.
2. المنهج التحليلي: الذي يقوم على تحليل المادة العلملية.

محتويات البحث:

تمهيد
علاقة علم النفس بالقرآن الكريم

تعد النفس الإنسانية محور التغيير، ومنطلق الحركة، وموجِّه السلوك؛ ومن هنا فقد كان الخطاب القرآني موجَّهاً بالأساس إلى النفس الإنسانية، ورأيناه يرشد النبي ﷺ إلى أن يقصد النفس في خطابه حتى يبلغ أعماقها، قال تعالى: ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾[النساء: 63].

ولأن الله ﷻ هو خالق الأنفس وهو ذاته منزل القرآن، فإنه يسفر عن وحدة المصدر هذه حالةٌ من التناسق والتناغم بين

مضمون القرآن ومكنون النفس، بحيث تتبوأ كل آية من القرآن موقعها المناسب في النفس الإنسانية، وهو ما عده القرآن الكريم إحدى الأدلة العظيمة على مصدرية القرآن، قال تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**[فصلت: 52].

وانطلاقاً من وحدة المصدر بين القرآن الكريم والنفس الإنسانية، كان الخطاب القرآني هو الأنجع في بنائها البناء الأقوم، وتوجيهها إلى ما يزكّيها ويُذكي فاعليتها، مما ينعكس على سلوك صاحبها ثباتاً وصبراً عند الأزمات، وفاعلية ومسارعة إلى نشر الخيرات، وهذا هو عمق الإيجابية وجوهرها.

وقد بين الخطاب القرآني بأن أي تغيير نبصره بأعيننا، لا بد وأن يكون مسبوقاً بتفاعل وحراك يحدث في أعماق النفس؛ قال تعالى: **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**[الرعد: 11]، ولعل من أهم ما يشير –في الخطاب القرآني– إلى مركزية النفس من حيث أثرها في سلوك الإنسان، أن الله ﷻ قد أقسم بشأن النفس كما لم يقسم على أي شأن آخر، فقد بُدأت سورة الشمس بأحد عشر قسماً، كان آخرها: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾**[الشمس: 7]، ليكون جواب القسم بعد ذلك: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**[الشمس: 9–10].

وقد عبّر النبي ﷺ عن هذه الأهمية البالغة التي يجب أن نوليها للنفس حين قال: "المجاهد من جاهد نفسه في الله" ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، باب فضل الجهاد، ح7064[3]، وإننا لا نفهم مجاهدة النفس هنا بالمعنى السطحي الذي يختزلها بترك المعاصي فحسب، بل إنه يدخل في معناها كل جهدٍ يبذله الإنسان على كوامنه بغية الوصول إلى الرشاد السلوكي: كبحاً لأهوائه، وإدارةً لمشاعره، وترتيباً لأفكاره، وتهذيباً لأخلاقه.

المبحث الأول
مفهوم الإيجابية وأهميتها وآثارها

المطلب الأول: مفهوم الإيجابية:

أولاً: الإيجابية في اللغة:

الإيجابية مصدر صناعي، من الثلاثي (وجب)[4]، وهو أصل يدل على عدة معان متقاربة هي: الإلزام والإيجاب والثبات والتوكيد والانعقاد وغيرها. ففي لسان العرب: "وَجَبَ الشيءُ يَجِبُ وُجوباً أَي لزمَ، وأَصلُ الوُجُوبِ السُّقوطُ والوقُوعُ، ووَجَبَتِ الشمسُ وَجْباً ووُجُوباً غابت"[5].

وفيما يلي أورد مجموعة من الاستعمالات الواردة في معاجم اللغة تحت الجذر (وجب)، ثم أشير إلى الملمح الذي يعنينا في إطار موضوع البحث:

أولاً: "اسْتَوْجَبَه أَي اسْتَحَقَّه"[6].

قلت: ولا يستحق أحدنا الشيءَ حتى يبذل قصارى جهده في تحصيله، وفي ذلك ملمح للفاعلية والذاتية لا يخفى.

ثانياً: "يقال وجب البيعُ، يَجِبُ وجوباً، وأَوْجَبَه إيجاباً أَي لَزِمَ"[7].

قلت: ومصطلح (الوجوب) يستعمل كثيراً في لغة الفقهاء، سيما في العقود، والإلزام يدل على وجود تفاعل بين أكثر من طرف، يكون أحدهما من التأثير والفاعلية لدرجة أن يلزم باقي الأطراف، مع تنبيه علماء اللغة على أن ليس معناه الإكراه.

ثالثاً: ورد في لسان العرب: "الموجبة هو الأمر الذي تفعله فتستوجب عليه العذاب أو الرحمة، وفي الحديث: (اللهم إني أَسأَلك مُوجِبات رَحْمَتِك)[8]، وأَوْجَبَ الرجلُ إذا عَمِلَ عَمَلاً يُوجِبُ له الجَنَّةَ أَو النارَ وفي الحديث: (مَنْ فعل كذا وكذا فقد

أَوْجَبَ)[9] أَي: وَجَبَتْ له الجنةُ أَو النارُ، وفي الحديث أَوْجَبَ طَلْحَةُ أَي عَمِل عَمَلاً أَوْجَبَ له الجنةَ"[10].

وفي القاموس الفقهي الموجب هو السبب[11].

قلت: وهذا يعزز ما ذكرته من أن استحقاق الشيء يقتضي السّعي لتحصيله والتفاني في طلبه والبحث عن أسبابه.

رابعاً: "الوَجَبُ الخَطَرُ وهو السَّبقُ الذي يُناضَلُ عليه"[12].

قلت: وفيها معاني المنافسة والمسارعة والحركة والنشاط من أجل بلوغ الهدف.

خامساً: "وجب القلْبُ وجْباً ووجيباً ووجَباناً: خَفَقَ"[13].

قلت: وخفقان القلب علامة الحياة والفعالية والتجدد والنشاط.

سادساً: "الوَجْبُ: النَّاقَةُ التي يَنْعَقِدُ اللِّبَأُ في ضَرْعِها"[14].

قلت: وفي ذلك علامة العطاء والنماء والخير، وكذا فيه الاستبشار بإنجاز المهة وتحقيق الهدف؛ لأن اللبأ لا ينعقد إلا بعد الولادة.

سابعاً: "وَاجِب الْوُجُود: هُوَ الَّذِي يكون وجوده من ذَاته، وَلَا يحْتَاج إِلَى شَيْء أصلاً وَهُوَ الله ﷻ"[15]. قلت: وهذا واضح تمام الوضوح بارتباط أصل الكلمة بمسألة الذاتية.

ثامناً: "الوَجِيبَةُ: الوَظِيفَةُ، وَهِي مَا يُعَوِّدُهُ الإنسانُ على نَفْسِه، كاللاّزِم والثّابت"[16].

قلت: وفي ذلك معنى الثبات والديمومة من جهة، وفيه معنى الذاتية في الانبعاث نحو الفعل لأن هذه الوظيفة هو من يعوّد نفسه عليها.

وأخيراً فإنه إذا كان معنى الإيجاب يتمحور –كما رأينا– حول اللزوم والإثبات والتأكيد، فإن الإيجابية تحمل معاني: الإصرار والعزيمة والثبات والصبر على مشاق الطريق.

ثانياً: الإيجابية في علم النفس:

ترتبط الإيجابية بشكل وثيق بالنفس الإنسانية، بل من النفس تنطلق إلى حيث مساراتها السلوكية، ولعل من أوضح ما يشير إلى هذا الارتباط ما ذكره عالم النفس الأمريكي "دانييل جولمان"[17] من أن جميع الانفعالات النفسية تعدُّ في جوهرها دوافع لأفعالنا، وأنها الخطط الفورية للتعامل مع الحياة، وهو يؤصّل لذلك بأن أصل كلمة انفعال أو عاطفة (Emotion) جاء من الفعل اللاتيني يتحرك (Motere)، بالإضافة إلى البادئة (e) التي تعني التحرك بعيداً، في إشارة إلى أن كل انفعال يتضمن نزوعاً إلى القيام بفعل ما، من هنا كان لا بد من النظر في مفهوم الإيجابية من منظور علم النفس[18].

وأبدأ هنا بتسجيل نقطة هامة تثري موضوع البحث وتشير إلى أهميته، وهي أنه تم مؤخراً[19] إفراد الإيجابية بمساحة خاصة في علم النفس تحت عنوان: (علم النفس الإيجابي)، وهو الباب الذي ألج من خلاله إلى البحث في مفهوم الإيجابية وفق علم النفس.

وبحسب الباحث صفات سلامة، فإن: "علم النفس الإيجابي يرتكز على دراسة وتحليل مواطن القوة والإبداع والعبقرية، ودور الخصائص الإنسانية الإيجابية مثل الرضا، والتفاؤل، والامتنان والاعتراف بالفضل، والصفح والعفو، والتسامح، والأمل، والإيثار، والتعاطف، والتقدير الاجتماعي، والتحكم في الذات، وحب الاستطلاع، في تحقيق وتعزيز السعادة الشخصية للفرد في مختلف أنشطته وممارساته اليومية، حيث يساعد الأفراد والمؤسسات على اكتشاف قدراتهم ومواطن قوتهم الإيجابية، وتنمية كفاءاتهم الذاتية، الأمر الذي سينعكس على صحة وإنتاجية الأفراد وتحسين جودة حياتهم وزيادة فعالية المؤسسات بصفة عامة"[20].

قلت: وهو ما يعني أن علم النفس الإيجابي يهدف إلى جعل الفرد سعيداً[21]على المستوى الشخصي، وأكثر فاعليّةً وإنتاجيةً على المستوى المجتمعي.

ومن ناحية أخرى، يرى علماء النفس الإيجابي[22] أن الكشف عن نقاط القوة لدى الفرد وفضائله، وتعهدها بالرعاية والتنمية، يفضي بذاته إلى فهم الإنسان لذاته وحثه على تغيير طرق تفكيره السلبي في ذاته وفي العالم وفي الآخرين، وبالتالي التخلص من أهم وأوّل مصدر من مصادر تعكير صفو الحياة، ألا وهو التفكير السّلبي[23].

قلت: وهو ما يشير إلى وجود صلة وثيقة بين منهجية التفكير لدى الفرد –وما تفرزه من أفكار ونظرات وقناعات– وبين الحالة الشعورية والنفسية التي يعيشها الفرد.

وتأكيداً لما سبق فإن الأستاذ إبراهيم كشت يرى –وفق هذا العلم– بأن منطلق الإيجابية كسلوك وفعل وممارسة هو التفكير الإيجابي والعواطف الإيجابية، حيث إن الإيجابية في السلوك لا تتحقق إلا انطلاقاً من تفكير أساسه اقتناع الشخص بقدرته على تحقيق الهدف، وعواطف أساسها التفاؤل بالوصول لذلك الهدف، من هنا كان مرتكز هذا العلم هو فكرة الفرد القادر على الإنجاز وتحقيق الذات، والمجتمع القادر على الارتقاء والتقدم. وهو يرى كذلك أن للأفكار دور كبير في تحديد الحالة الانفعالية والمعنوية للشخص، فإذا كانت الفكرة إيجابية كان ذلك أدعى –إلى حد كبير– لأن يكون الوضع النفسي للفرد أفضل، ويكون سلوكه على الأرض أنجح وأفعل[24].

قلت: وأضيف إلى ما ذكر أن الحالة الشعورية التي يعيشها الفرد تؤثر –هي الأخرى– في طبيعة الأفكار المتولدة لديه في كثير من الأحيان، ومن الشواهد الكثيرة التي تؤيد ذلك، أن كثيراً من حالات الانتحار، إنما فكر أصحابها بهذا الخيار في ظل حالة شعورية متردية من اليأس والإحباط.

ويرى عالم "دانييل جولمان" أن الأمل يعني أن لا يستسلم الفرد للقلق أو للاكتئاب، أو للمواقف الانهزامية، في مواجهة التحديات، وأن التفاؤل –مثل الأمل– يعني أن يتوقع الفرد توقعاً قوياً بأن الأمور سوف تتحول في الحياة إلى ما هو أفضل على الرغم من الإحباطات، والتفاؤل بمفهوم الذكاء العاطفي، موقف يحمي الأفراد من الوقوع في اللامبالاة، وفقدان الأمل، والإصابة بالاكتئاب، في مواجهة مجريات الحياة القاسية. وفي حين يرى "جولمان" أن الأمل والتفاؤل يعدّان من أعظم الدوافع لتحقيق الأهداف، إلّا أنه يحذِّر في الوقت ذاته من أن يكون هذا التفاؤل تفاؤلاً مفرطاً في السذاجة حين لا يكون واقعياً، معتقداً أنه يسبب الكوارث حين ذاك[25].

وهو ما يؤكده إبراهيم كشت بقوله: "إن التفاؤل –ضمن مفهوم التفكير الإيجابي– لا يعني الأمل السلبي القائم على مجرد انتظار الفرج، أو الاعتقاد بأن الأمور ستكون أفضل من تلقاء ذاتها، وإنما يعني اقتناع الشخص بقدرته على إيجاد البدائل وإعادة السعي والمثابرة، وإحداث التغيير في النتائج، والوصول إلى الأهداف، فالتفكير الإيجابي لا يغفل الواقع وما فيه من سلبيات، لكنه يحاول تعظيم الإيجابيات في أي حالة أو واقعة أو حدث"[26].

وقد حدّد "مارتن سليجمان" –مؤسس علم النفس الإيجابي– مفهوم التفاؤل بالكيفية التي يفسر بها الأفراد لأنفسهم نجاحاتهم وفشلهم، معتقداً أن لتلك التفسيرات دلالات عميقة لكيفية استجابة الأفراد لأحداث وضغوط الحياة؛ فالمتفائلون يرجعون فشلهم لأشياء مؤقتة ويمكن تغييرها، لينجحوا فيه في المرة المقبلة، بينما المتشائمون يلومون أنفسهم ويرجعون فشلهم لبعض صفاتهم الدائمة، التي يعجزون عن تغييرها.[27]

وبالاستناد إلى ما سبق، أستطيع أن ألخص مفهوم الإيجابية بأنها:

حالة من الفاعلية والإنتاجية تخلقها مجموعة من العوامل الفكرية والنفسية المترابطة والمتفاعلة معاً بشكل ديناميكي،

والتي تؤدي إلى الانبعاث الذاتي نحو الفعل والتعاطي السليم مع المؤثر، وإلى استثمار المتاح من القدرات والطاقات والمعطيات بغية تحقيق أفضل النتائج تأثيراً وتغييراً.

ثالثاً: الإيجابية في القرآن الكريم:

إن مصطلح الإيجابية وإن كان غير وارد في كتاب الله، إلا أن الإيجابية –كمفهوم– تعدُّ عنصراً أصيلاً في الخطاب القرآني، وبحسب سيد فإن القرآن الكريم كله مَعرض تلك الإيجابية، وهي أساس التصور الإسلامي بعد التوحيد، وهي التي تتجلى فيها حقيقة التوحيد؛ فالتوحيد الإسلامي –بحسبه– يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير، وليس مجرد التوحيد السلبي الذي يصفه أرسطو، أو يصفه أفلوطين[28].

ومن بين الآيات الكثيرة التي أستطيع أن ألقي الضوء من خلالها على مفهوم الإيجابية فإنني أختار مثلاً قرآنيّاً فريداً حوى فكرة الإيجابية والسلبية وعرضها بطريقة بديعة، وهو قوله تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[النحل: 76].

وقد ضُرب هذا المثل القرآني لتقريب الصورة للفرق بين فاعلية الخالق الرَّازق –جلّ وعلا– مقارنة بفاعلية –أو قل لا فاعلية– تلك الأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرّاً، حيث إنه –أي المثل– جاء في سياق قوله تعالى: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾**[النحل: 73]، وبتحليل هذا المثل نجد بأنه اشتمل على رجلين: أحدهما سلبي، عديم النفع، وعبءٌ ثقيل على سيده الذي يعوله، فلا يحقق له مطلباً، ولا ينجح في مسعاه، وهو ما عبّر عنه الخطاب القرآني بمصطلح (الكَل)، أما الآخر فهو إيجابي فاعل، كامل المواهب والحواس، ينفع نفسه وغيره، وقد عبّر عنه المثل القرآني بأنه آمر بالعدل وأنه على صراط مستقيم[29].

وفيما أعرض بشيء من التفصيل لصفات كل من هذين الرجلين:

صفات الرّجل الأول: الكَلُّ (السّلبي):

أولاً: إنه شخص عاجز عن الانجاز تماماً، حيث إنه: **﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ﴾**، وتنكير **﴿شَيْءٍ﴾** هنا يفيد العموم؛ لأنه جاء في سياق النفي[30]. وهذا يجعلنا نصرف النظر عن احتمالية كون ضعف قدراته الجسدية هي السبب الذي يقف وراء هذا العجز؛ فضعف القدرات ربما يكون سبباً في العجز عن أداء مهمات معيّنة أو في ظروف معينة، أما الفشل الدائم، والعجز الكامل عن أداء أي شيء مهما بلغت سهولته، فتلك سلبية مردها بالتأكيد إلى عوامل داخلية.

ثانياً: إنه لا يغتنم الفرص مهما كانت سانحة لإنجاز أبسط المهام وتحقيق أدنى النجاحات[31]، كما إنه لا يستثمر الظروف مهما كانت معينة على تحقيق الهدف؛ حيث إن تمام وصفه في الآية **﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾** يلغي احتمالية كون الظروف الصعبة أو غير المواتية هي السبب الواقف وراء ذاك العجز.

بمعنى أنه مهما كانت المهمة سهلة –كما أسلفت– والظروف مواتية والفرصة سانحة لأن يجلب هذا الرجل السّلبيُ خيراً –مهما كان ذلك الخير زهيداً– فإن الإخفاق والفشل حاضر على الدوام، حيث إن **﴿أَيْنَمَا﴾** و**﴿بِخَيْرٍ﴾** تدلان على العموم أيضاً.

ثالثاً: إن من صفات هذا الرجل أيضاً أنه متشائم على الدوام، حيث إنه لا ينظر إلى الواقع نظرة متوازنة، تأخذ بعين الاعتبار الجانب المضيء من المشهد كما الجانب المظلم، بل إنه يقصر النظر دائماً على الجانب المظلم فحسب، وهو أمرٌ نستنتجه من قوله تعالى: **﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾**.

رابعاً: إنه خاملٌ وغير مبادر على الإطلاق، فهو لا ينبعث من ذاته للقيام بالأعمال، بل هو موجَّهٌ من مولاه، ينتظر منه الأمر ليتحرّك نحو الفعل، لأنه –كما تبيّن الآية– عبد[32] مأمور لا يملك إرادته.

خامساً: إن الوسيلة الأساسية للتفاعل والتخاطب والتأثير بينه وبين المجتمع مسلوبة أو معطَّلة، حيث هو﴿**أَبْكَمُ**﴾ كما يظهر في الآية الكريمة، وهو ما يجعله منزوياً منطوياً على ذاته، لا يهتم بأمور المحيط الذي يعيش فيه.

والمحصلة إذن أن هذا الرّجل ﴿**كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ**﴾، بمعنى أنه عبءٌ وثِقل عليه[33]، إذ هو كما رأينا عنصر خامل لا يفعِّل طاقاته، ولا يستثمر إمكاناته، ولا يتفاعل مع المعطيات، ولا يُرجى منه منفعة، وإذا ما نظرت في قاموسه يوماً، فإنك ستجده يغصُّ بالأعذار والمبررات والعتب والاعتراض والشكاوى والحجج الواهية، متقمّصاً دور الضَّحية ليدفع عن نفسيه تبعات الفشل الملازم له، والذي كان هو نفسه سبباً في حدوثه بطبيعة الحال!

الرجل الثاني: الآمر بالعدل (الإيجابي):

أما هذا الرجل فلو أردنا أن نعطيه وصفاً عاماً، لقلنا إنه يحمل نقيضَ ما يحمل الرجل الأول من الصفات؛ لأن هذا المثل جاء على صورة المقابلة والمقارنة بين حال كلٍّ من الرجلين من أجل إظهار حجم التباين بينهما، وهو ما يظهر من خلال قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ وبالتالي فإننا نستطيع أن نستنتج من ذلك بأن من صفات الرجل الثاني (الإيجابي) أنه: مبادرٌ، متفائل، فاعلٌ، مؤثّر، خيّرٌ، ينطلق ذاتياً نحو الفعل، أما تفصيل ذلك فأبيّنه من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن هذا الرجل كما تصفه الآية الكريمة: ﴿**يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾، وحين يأمر غيره بالعدل فإنه –بلا شك– قد وجد ذاته، وفعّل قدراته، وتعدى عتبة نفسه متوجّهاً ليتفاعل مع المحيط على نحو خيّرٍ مؤثر، وما يعزز هذا الفهم أن الآية تخبرنا بأنه ﴿**وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، فهو يتمثل تماماً ما يأمر به الآخرين.

ثانياً: ثم إن كلمة ﴿**يَأْمُرُ**﴾ في هذه الآية تحمل بين طياتها دلالتين هامتين:

الدلالة الأولى: أنها تشير إلى فكرة (الذاتية)، فحيث إن هذا الرجل يأمر، يعني ذلك أنه مُنطلِقٌ من ذاته في التعامل مع الآخرين ومنبثق من ذاته في مباشرة أعماله، وفق تصوراته هو، ووفق قناعاته هو، ووفق مشاعره وقيمه هو، ووفق إمكاناته وقدراته هو؛ ولذلك فإننا نجد بأن المبادرة والدافعية حاضرة بقوة عند هذا الرجل، على عكس الرجل الأول (العبد المأمور) الذي يوجِّهه سيده!

الدلالة الثانية: أنها تشير إلى فكرة "الفاعلية والتأثير" في أوجِها وتوهّجها؛ حيث إن مصطلح الأمر –وحقيقة الأمر– يفيد الإلزام والإيجاب كما مرَّ في بيان المعنى اللغوي للإيجابية، فمن بلغ تأثيره بالآخرين حد أن يأمرهم، لا شك أنه إنسان فاعل مؤثر. وهنا ألمح ربطاً حسناً بين المصطلح القرآني الدقيق الذي يعبّر عن الإيجابية، والمتمثل بعبارة ﴿**يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ وبين المعنى المعجمي للإيجابية والذي تنبثق استعمالاته من معنى الإلزام والإيجاب كما بينت آنفاً.

ثالثاً: إننا نلاحظ بأن هذه "الفاعلية الذاتية" لهذا الرجل إنما تتوجه نحو الخير والمنفعة، إذ هو ﴿**يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ لا بشيء آخر، وهل من قيمة تجمع معاني الخير أكثر من العدل؟ إنها القيمة التي بُعث من أجل ترسيخها الرسل، وأنزلت من أجل تحقيقها الكتب، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: 25].

المطلب الثاني: أهمية الإيجابية وآثارها:

للإيجابية أهمية كبيرة وآثارٌ عظيمة إنْ على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، وحين نتحدّث عن الإيجابية

هنا، فإنما نتحدّث عن الإيجابية كحالة تشترك في تكوينها الأفكار والمشاعر، وتنعكس على السلوك فاعلية وإنتاجية وتأثيراً. وفيما يلي أسلط الضوء على أبرز النقاط التي تظهر من خلالها أهمية الإيجابية وآثارها:

أولاً: إن الإيجابية تعبير حقيقي عن مبدأ الاستخلاف وفكرة حمل الأمانة؛ ذاك أن الإيجابية تعني أن نكون فاعلين مؤثرين في اتجاه الخير، وهو عمق وظيفتنا كخلفاء في الأرض، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة: 30].

ثانياً: إن الإيجابية تؤثر في عاقبة الإنسان على نحو حسن؛ وذلك انطلاقاً من أمرين:

الأمر الأول: أن الإيجابية تتضمن فكرة الذاتية في الانبعاث نحو الفعل، وعدم انتظار الآخرين، مع عدم ربط أفعالنا بأفعالهم، ولذلك فإنها تتماهى مع فكرة الفردية في التكليف والفردية في الحساب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[الأنعام: 164]، وقال تعالى: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**﴾[مريم: 95].

الأمر الثاني: أن الخير ركن أصيل من أركان مفهوم الإيجابية؛ حيث إن الإيجابية –كما أسلفنا– تعني الفاعلية والتأثير في اتجاه الخير، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران: 104].

ثالثاً: إن الإنسان الإيجابي المؤثِّرَ يكونُ ذا مكانة مرموقة وحضور مجتمعي طيّب، حيث إن الإيجابية تعتبر من أهم صفات القائد الناجح، وكلما ازداد تأثيرنا في اتجاه الخير، ازداد تقديرنا عند أهل الخير، وهي حقيقة تؤكدها المشاهدات اليومية.

رابعاً: إن الإنسان الإيجابي ينال محبة الآخرين ويحظى بمكانة قلبية كبيرة لديهم –علاوة على المكانة المجتمعية– ذاك أن الإيجابية تتضمن معانٍ يحبها الناس بفطرتهم كالمبادرة إلى فعل الخير، والمسارعة إلى نفع الآخر، والتفاؤل بالمستقبل، والمثابرة وعدم الاستسلام، والناس تميل بطبيعتها –كذلك– إلى الإنسان المنفتح الذي يتعاطى مع الأمور بواقعية، ويستثمر المعطيات للخروج بأفضل النتاجات، بخلاف الإنسان السلبي، المتشائم، المتضجّر، المنكفئ على ذاته؛ فلا هو أحدث تغييراً ولا كسب محبةً.

خامساً: إن من شأن الإيجابية أن تشعر الإنسان بالسعادة، فكما سبق وبينت[34] أن علم النفس الإيجابي يرتبط وفق مفهوم مؤسِّسه "مارتن سيلجمان" بالسعادة، بل إنه عدَّ تحقيق السعادة ثمرة هذا العلم، وقد سمى "سيلجمان" كتابه الشهير الذي أسس فيه لفكرة علم النفس الإيجابي "السعادة الحقيقية"، في إشارة منه إلى أن الإيجابية هي الطريق الذي يؤدي تحقيق السعادة.

سادساً: إن الإيجابية من شأنها أن تحافظ على الصحة النفسية للأفراد، لأن الإيجابية كما نعلم ضاربة الجذور في عمق النفس الإنسانية، بل من هنالك تنطلق، ولذلك فهي تُلهم الأفراد السكينة والطمأنينة والراحة النفسية، لما تحمله من معاني التفاؤل والأمل والمثابرة، وتجنبهم القلق والتوتر والضغط والاستثارة.

سابعاً: إن الإيجابية تجعل الفرد قادراً على تخطي الصعوبات والابتلاءات، والتأقلم والتّكيف مع متغيرات الحياة وظروفها المتقلبة، وهي تمثل الجسر الذي نعبر منه إلى حيث النجاح والإبداع، فثمة دون النجاح والإبداع صعوبات بالغة ينبغي أن تذلّل، وعقبات كبيرة ينبغي أن تُقتحَم، وكما قال الشاعر:

لا تحسبنَّ المجد تمراً أنت آكلهُ ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرَ![35]

ثامناً: إن الإيجابية تؤثر في الصحة البدنية للأفراد على نحو حسن، حيث إن السلوك الإيجابي –كنتاج للأفكار والمشاعر

الإيجابية– يجعل الإنسان أكثر إحساساً بالحياة وأكثر تعلقاً بها، وهو ما يؤثر في صحة الأفراد على نحو فعّال، بالمقابل فإن العواطف المسمومة –بحسب دانييل جولمان– تهدد صحتنا الجسدية وتجعلها عرضة للإصابات بالمخاطر تماماً كما يفعل التدخين، وهو ما توصّلت إليه بعض الدراسات العلمية والميدانية، كتلك الدراسة[36] التي نشرتها مجلة "سيكولوجي أند إدجينج"، والتي مفادها أن مجموعة من الباحثين في جامعة "تكساس" قد توصلوا إلى أن الإيجابية تؤجل مراحل الشيخوخة، فالأشخاص الذين يحملون رؤية إيجابية للحياة، وينظرون إليها بنظرة يملأها الأمل، تقل عندهم ظهور علامات الهَرَم –كفقدان الوزن والجهد وسرعة السير وقوة القبضة– مقارنة بالمتشائمين، وقد قال الدكتور "جلين أوستير" قائد فريق البحث: "أعتقد أن هناك علاقة بين العقل والجسم حيث إن أفكارنا وسلوكنا ومشاعرنا تؤثر على الوظائف البدنية وعلى الصحة بشكل عام إما عن طريق آليات مباشرة مثل وظائف جهاز المناعة أو عن طريق آليات غير مباشرة مثل شبكات الدعم الاجتماعية"[37].

وقد أشارت دراسة أخرى نشرت في الدورية نفسها إلى أن التوجه العقلي للفرد قد يؤثر في أدائه البدني، وفي هذه الدراسة طلب فريق البحث بجامعة "نورث كارولاينا" من 153 شخصاً من مختلف الأعمار إجراء اختبارات على الذاكرة بعد أن سمعوا كلمات إيجابية وسلبية تصف العبارات الشهيرة عن الشيخوخة، وتضمنت العبارات السلبية: الاضطراب والعته والخرف، أما العبارات الإيجابية فتضمنت: الإنجاز والنشاط والتميز، وأظهرت النتائج أن أداء الذاكرة عند المشاركين في الدراسة من البالغين كان ضعيفاً بعد أن تعرضوا لعبارات سلبية. وأكّد الباحثون بأن دراستهم تشير إلى أنه إذا تم التعامل مع كبار السن على أنهم أعضاء فاعلون في المجتمع فإنهم سيكونون كذلك. وقال توماس هيس قائد فريق البحث: "قد تكون هناك أسباب اجتماعية ذات تأثير قوي على أداء ذاكرة البالغين"[38].

المبحث الثاني
دور قصة يوسف عليه السلام في بناء الإيجابية

المطلب الأول: واقع نزول سورة يوسف وترتيب نزولها:

أوّلاً: واقع نزولها:

حين ندرك الواقع الصعب الذي كان يعيشه النبي ﷺ قبل نزول قصة يوسف عليه السلام، فإنه يتبين لنا الدور الكبير الذي أدّته هذه القصة في بث روح الأمل والتفاؤل في نفس النبي ﷺ، وفي انتشال مشاعره –والمسلمين من بعده– من الضعف والانكسار، فقد كان الواقع الذي تعيشه الدعوة الإسلامية حين نزلت سورة يوسف (قصة يوسف) واقعاً بالغ الصعوبة وشديد الحساسية، حيث نزلت السورة في أواخر العهد المكّي[39] –قبل بيعتي العقبة– حيث انسداد أفق الدعوة، وتزايد الأذى وتعاظم الخطر على القلّة المؤمنة، حتى على محمد ﷺ ذاته، سيما بعد وفاة السند المعنوي المتمثل بزوجته خديجة والسند العشائري المتمثل بعمه أبي طالب، أضف إلى ذلك أن الاستهزاء بالنبي ﷺ كان قد بلغ أشدّه بعد حادثة الإسراء والمعراج[40]، وهذه الأمور وغيرها جعلت من احتمالية تسلل اليأس إلى قلب النبي ﷺ تتزايد شيئاً فشيئاً، بذات القدر الذي كانت تتناقص فيه آماله في إمكانية نجاح الدعوة الإسلامية[41].

ولعلَّ مما زاد هذه الظروف –التي اتسمت بالصدود والإيذاء والاستهزاء– قساوة إلى قساوتها، وجعلها أكثر تأثيراً في معنويّات النبي ﷺ أنه قد رافقها نزولُ آيات مفزعة من سورة هود على قلبه ﷺ كما سأبيّن بعد قليل – غلب عليها طابع الإنذار والتحذير، بل التلويح بالهلاك الوشيك الذي ينتظر قريش ويحيق بهم؛ وذلك لمشابهتهم الأقوام البائدة بالكفر والعناد

والإيذاء، الأمر الذي كان يشكّل مقتلاً نفسيّاً لنبي الرحمة ﷺ، الذي عرف عنه حرصه البالغ على إيمان قومه وحزنه الشديد على عدم استجابتهم له، لدرجة أن تنزل عليه آيات في مواطن شتى تحثه على الكف عن ذلك والتوقف عند دور المبلغ والمنذر، كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: 99].

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[الكهف: 6].

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: 3].

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر: 8].

ثانياً: ترتيب نزول سورة يوسف:

يرى الدكتور أحمد خيري العمري أنه عند دراسة سورة يوسف يجب ألا نعزلها عن السياق المحيط بها في الخطاب القرآني[42]، فقد جاء ترتيب نزول سورة يوسف بين سور القرآن ترتيباً بديعاً، حكيماً، بالغ الأهمية، وبليغ الدلالة، ويظهر الدور الإيجابي الكبير الذي أدته هذه السورة، حيث سبقها في النزول تماماً سورة هود –وسبق سورة هود سورة يونس–[43] وإذا ما دقّقنا النّظر في سورة هود التي تزامن نزولها مع الواقع الصعب سالف الذكر، فإننا نجدها تعرض لنا صوراً مفزعة ومشاهد مروّعة لهلاك الأقوام السابقة حين كذّبوا الرّسل وآذوهم وصمّوا آذانهم عن دعوتهم، بما تتضمنه هذه الصور من أوجه تشابه مع ما تفعله قريش من تكذيب لمحمد ﷺ وصد عن دعوته، ثم نجد السورة تسير بنا في نبرة تصاعدية من التهديد والوعيد إلى أن تصل إلى الذّروة في قوله تعالى: **﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾**[هود: 121-122].

قاطعاً بهذه الآية الجدال مع المشركين، متوعدا إياهم بقرب العذاب ودنو الهلاك، ولأجل هذا المعنى عبر النبي ﷺ عن ثقل هذا الأمر على نفسه، فحين تعجب أبو بكر من مشيبه، أجاب: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات و**﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾** و**﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾**". الترمذي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب ومن سورة الواقعة، ح3297، وفي رواية عند الطبراني "شيّبني هود وأخواتها". الطبراني، المعجم الكبير، ح5804[44].

وبينما يضطرب فؤاد النبي ﷺ ويلتهب قلبه، إشفاقاً على قومه أن يحلّ بهم عذاب مقيم، تنزل سورة يوسف على قلبه فتبرده وتنعشه، وتحيي الأمل في نفسه من جديد، مشعرة إيّاه بإمكانية النجاح وحدوث التغيير ولو في أماكن أخرى، وهو ما أبينه في بداية المطلب الثاني إن شاء الله.

المطلب الثاني: إمكانية تحقيق النجاح وإحداث التغيير رغم جميع الصعوبات:

صحيح أنه يغلب على قصة يوسف عليه السلام طابع الحزن والأسى، ولكن حين نمعن النظر في مضامينها وأحداثها ومآلاتها، فإننا نجد بأنها جاءت على نحو يبعث في نفوسنا الأمل، ويعزّز فينا الشعور بإمكانية تحقيق النجاح وإحداث التغيير على الرغم من جميع الصعوبات والتحديات التي تواجهنا، ويظهر ذلك من خلال المشاهد الآتية:

1- رؤيا طفولية تبدو خيالية، صعبة التحقق، بعيدة المنال، نراها تتحقق في نهاية المطاف[45].
2- أبٌ ملهوف على فراق ابنه، يحضنه بعد طول غياب، وعائلة يجمع الله شملها بعد تفرق وشتات.
3- رجلٌ يفقد بصره، ثم يتماثل –تماماً– للشفاء.
4- مجموعة بدوية، تنتقل إلى الحضر حيث الخصب والنماء.

5- إخوة يتواطؤون على اقتراف جرم عظيم، ثم يعودون إلى الله تعالى، فيتوب الله عليهم.
6- خادم مغمور في قصر عزيز مصر، يصبح عزيزاً لمصر.
7- شابٌ يتهم في شرفه ويودع في السّجن ظلماً وزوراً، تظهر براءته بعد بضع سنين.
8- امرأة تفتري على شاب، تعود لتقرّ بالحقيقة بعد بضع سنين.
9- بلد يعيش أزمة اقتصادية خانقة، يتجاوزها ويأتي بعدها الفرج والرخاء.

من هنا نقول بأن القصة جاءت لتكافح اليأس في نفوسنا وتقتلعه من أعماقنا، وتدعونا إلى ديمومة المحاولة وإلى المثابرة والمصابرة وحسن إدارة الأزمات التي يتغير معها كل شيء؛ فالمريض يشفى، والغائب يعود، والمظلوم يُنصَف، والسجين ينال حريته، والعاصي يتوب، والأزمة تُفرج، والهدف يتحقق، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[يوسف: 90].

وقد كان أثر قصة يوسف في النبي ﷺ بالغاً، حيث أسهمت -إلى حدٍ بعيد- في إنعاش آماله وطرد ما كان يلقيه الشيطان في أمنيّته من محاولات لقطع رجائة من إيمان قومه، وأن العذاب واقع بهم لا محالة، سيما أنه قد غلب على مخيلته قبل نزول سورة يوسف تلك المشاهد المفزعة التي اشتملت عليها سورة هود، والمتضمنة إهلاك الأمم والأقوام المعاندة، وما رافق ذلك من نذر الفشل ومشاعر الخذلان التي عايشها النبي الكريم في ظل انسداد أفق الدعوة، أما بعد نزول قصة يوسف -بما تضمنته من رسائل وآفاق إيجابية- فقد أصبح تحقيق النجاح ممكناً بالفعل، ولو في مكان آخر خارج مكة المكرمة بادئ الأمر كما حصل مع يوسف، ومن هنا فقد بات خيار ترك الديار وارداً ولو بشكل مرحلي.

ثم إن القصة فتحت للنبي ﷺ أفقاً جديداً للانتقال إلى العيش في مجتمعات زراعية إنتاجية تحقق الاكتفاء الذاتي عوضاً عن الاقتصار على مجتمع البداوة والرعي الذي نشأ فيه، أضف إلى ذلك أن مسألة تجاوز النبي ﷺ للظلم الذي يتعرض إليه من قبل أقرب الناس إليه بات أمراً ممكناً، تماماً كما حصل مع يوسف عليه السلام.

المطلب الثالث: التعاطي الإيجابي مع الرؤى والنبوءات:

تعرض لنا قصة يوسف عليه السلام نموذجين اثنين في كيفية التعامل الإيجابي الفاعل مع الرؤيا أو النبوءة، بحيث لا يتم انتظار تحققها على أرض الواقع دون أن يكون لنا دور نؤديه، بل تبين لنا بأن دورنا إزاء تحقيقها هو دورٌ محوري للغاية، يتمثل بالصبر والكفاح والمثابرة وبذل قصارى الجهد في سبيل تحقيقها، هذا في حال كانت رؤيا أو نبوءة خير، كما هو الحال في تعاطي يوسف وأبيه مع رؤياه.

أما في حال كانت النبوءة أو الرؤيا بخلاف ذلك فإن دورنا يتمثل ببذل قصارى جهدنا في دفع خطرها، وتلاشي أضرارها، أو التخفيف من تلكم الأضرار على أقل تقدير، بدلاً من الرضوخ والاستسلام، وهو ما يظهر في تعاطي يوسف عليه السلام وأهل مصر مع رؤيا الملك، وفي كلتا الحالتين فإن الدور المحوري الفاعل حاضر وبقوة، وما لم يتم التعاطي مع النبوءات والرؤى الصادقة على هذا النحو، فإن الدور الذي تؤديه سيكون سلبيّاً للغاية.

ففي رؤيا يوسف عليه السلام نجد بأن يعقوب عليه السلام قد بدأ بالحيطة والحذر والعناية بالأسباب منذ اللحظة الأولى التي أخبره ابنه بما رأى، ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[يوسف: 4-5]، لقد قال يعقوب ذلك في حين كان يمكنه يقول بحسب بعض الأفهام الخاطئة: "إن هذه الرؤيا حقّ، وما دامت حقّاً فلا بد لها أن تتحقّق مهما حاولوا الحيلولة

دون ذلك؛ وبالتالي لا داعي للقلق، ولا داعي للاحترازات والمبالغة بالعناية بالأسباب"، أو بمعنى آخر لقد كان بإمكان يعقوب أن يبرّر يتقاعس عن الأخذ بالحيطة والحذر وعن الأخذ بالأسباب مبرراً ذلك بإيمانه المطلق بالقدر، كما يفعل كثير من الناس اليوم مستندين إلى أفهام مغلوطة لآيات القرآن، مثل قول الله تعالى: **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾**[الأحزاب: 38] نعم، لقد كان بإمكان يعقوب أن يقول ذلك، ولكنه بالتأكيد ما كان له أن يقوله وهو النبي الذي يدرك تماماً بأن الأخذ بالسبب جزء لا يتجزّأ عن حقيقة التوكل على الله[46]، وكذلك جزء لا يتجزأ من القدر ذاته[47].

والحقيقة أننا حين نتأمل في مجريات القصة، نجد بأن يوسف وأباه –عليهما السلام– قد استلهموا من هذه الرؤيا رؤيةً مستقبلية وهدفاً واضحاً، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تصبّيرهم، والتخفّيف عنهم، وتمكينهم من التعامل مع الأزمات بكفاءة واقتدار، ويظهر ذلك في عدة آيات منها:

1- **﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾**[يوسف: 18].

2- **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**[يوسف: 83].

3- **﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[يوسف: 90].

ولعل مرادنا في كيفية التعاطي الإيجابي مع الرؤى يتضح أكثر بالنظر إلى رؤيا الملك وكيف تم استثمارها والتعامل معها على نحو إيجابي فاعل، فقد بنى يوسف ﷺ وفق هذه الرؤيا خطّة اقتصادية محكمة للخروج بالبلد من الأزمة الكبيرة التي تحدق به، أبعادها: الإنتاج، والاستهلاك، والتخزين: **﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾**[يوسف: 47-49].

وهكذا فإنهم بدلاً من أن يستسلموا ويرضخوا للواقع الصعب الذي تنذر به رؤيا الملك وما ينجم عن ذاك الاستسلام من تقاعس وسلبية مقيتة، فإنه في واقع الأمر قد تم مضاعفة الجهود أكثر من ذي قبل في عمل دؤوب وجهد متواصل، بغية دفع الخطر الذي تحمله تلك الرؤيا، وهو الأمر الذي نستنتجه من قول الله تعالى على لسان يوسف ﷺ: **﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾**؛ حيث أن كلمة **﴿دَأَباً﴾** تحمل معنى الجد والتعب والاستمرارية، قال الإمام أبو السعود في معنى **﴿دَأَباً﴾**: "قُرأ بفتح الهمزة وسكونها[48]، وكلاهما مصدر دأب في العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أي دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال"[49]. وقال الإمام الفخر الرازي: "الدأب استمرار الشيء على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا إذا استمر في فعله، وقد دأب يدأب دأبا ودأبا أي زراعة متوالية في هذه السنين"[50].

قلت: وفي هذه المعاني التي تصف ما كان عليه أداؤهم الزراعي ما لا يخفى من الدلالة على حالة الفاعلية الكبيرة التي صاروا إليها بعد أن بلغهم تأويل رؤيا الملك، وهي –كما نرى– صورة مشرقة للتعاطي الإيجابي مع الرؤى والنبوءات، ونحوها نستشفه من توجيه يعقوب لأبنائه فيما بعد، حين أمرهم أن يتحسّسوا من يوسف وأخيه، والشاهد أن أصل كلمة التحسس يعني استعمال الحواس وتفعيلها، وهو ما يعني أنه أمرهم باستفراغ الجهد في طلب يوسف وأخيه وتتبع أخبارهما بغية الظفر بهما[51].

المطلب الرابع: موقع التمكين والاجتباء في السورة:

لقد ورد ذكر التمكين والاجتباء في السورة الكريمة في موقع يحمل معه دلالات إيجابية للغاية، حيث ورد ذكر الاجتباء وإتمام النعمة في السورة بعد آية الكيد مباشرة، في قوله تعالى: **﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً**

إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف: 5-6].

وأما ذكر التمكين فقد ورد في السورة الكريمة في موضعين اثنين:

الموضع الأول: بعد إلقاء يوسف عليه السلام في الجبّ ثم بيعه من قبل السيارة بثمن بخس، قال تعالى: **﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**[يوسف: 19-21].

الموضع الثاني: بعد خروجه من السجن، قال تعالى: **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[يوسف: 54-56].

ومن هنا يتبيّن لنا بأن موقع التمكين والاجتباء في السورة الكريمة جاء يحمل معه رسالة بالغة الإيجابية مفادها أن ما ننظر إليه في كثير من الأحيان على أنه شرٌّ محض، هو في واقع الأمر يحمل بين طيّاته بشائر الأمل ومعاني الخير، وأن كلَّ محنةٍ نمر بها تتضمّن بداخلها منحاً ينبغي أن نتوقف عندها ونعيها، وهو ما يعني أن التحدّيات والعقبات التي تواجهنا لا تعدّ محبطة للنجاح قصراً، أو معيقة للتقدم والانجاز قهراً، بل لعلها تكون مولّدة ودافعة له، وهو الأمر الذي أفصل فيه في البند التالي.

المطلب الخامس: التحدي والاستجابة في قصة يوسف:

إن مدار الإيجابية يتمحور بالأساس حول (المؤثر – الاستجابة)، والمؤثر يكون أحياناً مُعيناً دافعاً يحتاج منّا أن نستثمره، كما يشكل أحياناً أخرى تحدّياً يحتاج منّا أن نجابهه كي نتغلّب عليه، وفي كلتا الحالتين فإن الإيجابية تتمثّل في كيفية تعاطينا مع هذا المؤثر وليس في ماهية المؤثر ذاته، وهو ما يعني أن مجرّد وجود صعوبات أو تحدّيات تقف في طريق النجاح لا يعدُّ مانعاً من تحقيقه، بل إن الواقع يخبرنا –وكذا التاريخ – بأن التّحديات كثيراً ما تحدث أثراً إيجابيّاً في نفوسنا وتؤدي دوراً محوريّاً في تحقيق إنجازاتنا وتجاوز أزماتنا(52) دون أن نشعر بذلك؛ ذاك تلك التحديات تستفزّنا وتستثير طاقاتنا الكامنة، الأمر الذي ينعكس على مستوى الفاعليّة وكيفية الأداء وبالتالي على حجم الإنجاز.

ومسألة التعاطي الإيجابي مع المؤثر هي ما أكّد عليه أرنولد توينبي في نظريته (التحدي والاستجابة)(53)، حيث يرى توينبي بأن الفرد الذي يتعرض لصدمة قد يفقد توازنه لفترة ما، ثم قد يستجيب لها بنوعين من الاستجابة: الأولى سلبية، وتتمثّل بالنكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسك به تعويضاً عن واقعه المرّ، فيصبح انطوائيّاً. والثانية إيجابية، وتتمثّل بتفهّم هذه الصّدمة والاعتراف بها، ثم محاولة التّغلّب عليها، فيكون في هذه الحالة انبساطيّاً.

وقصة يوسف عليه السلام تعرض لنا نموذجاً متميزاً في كيفية التعاطي الإيجابي من قبل المجتمع وأفراده وقيادته مع تلك الأزمات والتّحديات الكبيرة التي قد تواجههم، حيث كان تعرض المجتمع المصري في القصة لسبع سنين من القحط والجدب يمثل اختباراً صعباً وتحديّاً كبيراً يقف أمامهم، فإما أن يتعاملوا معه بعقلية سلبية تقودهم إلى الاستسلام أمام عظم التحدي الذي يواجههم، وإما أن يتعاملوا مع هذا التحدي بإيجابية فينشطوا في مجابهة الخطر وتلافي أضراره، فيحثوا الخطى، ويضاعفوا الجهد، ويرشدوا الاستهلاك، ويسيروا وفق خطّة اقتصادية وسلوكية محكمة للخروج من الأزمة التي توشك أن

تدهمهم، وهو الأمر الذي حدث بالفعل: **﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾**[يوسف: 47-49].

المطلب السادس: استثمار الموهبة وتسخير العلم في صالح الدعوة والناس:

إن مدى فاعلية الإنسان تستند بشكل أساسي إلى مقدار طاقاته وإمكاناته، أو بالأحرى إلى مقدار ما يفعّل الإنسان ويستثمر من تلكم الطاقات والإمكانات –هذا بالإضافة طبعاً إلى العوامل النفسية والفكرية– وقصة يوسف تبيّن لنا –في غير موقف– كيف يمكننا بالفعل أن نستثمر مواهبنا وإمكاناتنا ونوظفها في خدمة رسالتنا ومنفعة الآخرين.

وفي ذات الوقت الذي تبين لنا القصة أن يوسف كان موهوباً جداً، ومتميّزاً للغاية في تأويل الأحلام والرؤى، فإنها تبيّن لنا أيضاً كيف أنه كان حريصاً جداً على استثمار هذه الموهبة وتوظيفها في مسيرته الإصلاحية ودعوته الربانية على نحو متميز للغاية، وهو ما أوضحه فيما يأتي:

أولاً: استثمار يوسف لموهبته في الدعوة إلى الله:

تخبرنا القصة الكريمة بأنه قد دخل السجن مع سيدنا يوسف عليه السلام فتيان من غير ملة الإسلام، وأنهما قد طلبا منه أن ينبئهما بتأويل رؤيا كل منهما، كان كل واحد منهما قد رأى واحدة منها، قال تعالى: **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[يوسف: 36].

ويبدو هنا أن سيدنا يوسف عليه السلام الذي كان يشغله هم الدعوة إلى الله تعالى وإحداث التغيير في نفوس الناس وعقائدهم – قد رأى في طلبهما مدخلاً جيداً يلج من خلاله إلى دعوتهم إلى الله تعالى وتعريفهم به سبحانه، وأنه صاحب الفضل والإنعام بذاك العلم وتلك الموهبة، ولذلك فإن يوسف عليه السلام قد سارع إلى اقتناص الفرصة رابطاً بين موهبته في تأويل الأحلام وبين العقيدة التي يعتنقها، رادّاً هذا العلم إلى الله عز وجل، ثمّ إنه قد طوّف بهذين الفتيين في فضاءات التوحيد، داعياً إياهم إلى الله تعالى، مغتنماً حاجتهم لموهبته وتشوّفهم للانتفاع بها؛ **﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**[يوسف: 37-40].

وبعد هذه الجولة الدعوية التي أخذهم بها سيدنا يوسف عليه السلام، يعود إلى رؤيتيهما ويجيبهما إلى طلبهما في تأويل تلك الرؤيتين[54]: **﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾**[يوسف: 41].

وتجدر الإشارة هنا إلى ملحظ هام يعنينا كثيراً في سياق الحديث عن الإيجابية، وهو أن مرحلة السجن لم تمثل بالنسبة لسيدنا يوسف عليه السلام مرحلة راحة ودعة وخمول، كما أن يوسف عليه السلام لم يتذرّع بكونه سجيناً مقيد الحركة ويعاني من ظرف بالغ الصعوبة ومشاعر بالغة الإيلام، أقول لم يتذرع بذلك على استنكافه عن ممارسة دوره الفاعل بحسب ما هو متاح، فالسجن لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة[55]، ومن هنا فقد وجدناه بالغ النشاط والتأثير سواءً على الصعيد

الدعوي داخل السجن في دعوة الفتيين إلى التوحيد، أو على الصعيد الإصلاحي خارجه بدوره الكبير في إنقاذ مصر من الأزمة التي تحيق بها.

ولعل نظرة سريعة إلى عدد الآيات التي تتحدث عن فاعلية يوسف ﷺ في سجنه بالنسبة إلى مجموع الآيات التي تتحدث عن فترة السجن، أقول لعل ذلك يشير –بدرجة ما– إلى مدى استثماره ﷺ للوقت داخل السجن بكل ما هو نافع طيلة السنوات التي أمضاها هناك.

ثانياً: استثمار موهبته في خير الناس وإنقاذ الدولة من الانهيار:

ويتمثل ذلك في تأويله لرؤيا الملك، وإرفاقه لهذا التأويل خطةً محكمة للخروج من الأزمة كما بينت ذلك آنفاً: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[يوسف: 47–49].

المطلب السابع: القصة تعرض نموذجاً إنتاجياً زراعياً في مجتمع بدوي رعوي:

لقد بُعث النبي الكريم ﷺ في مجتمع يحتكم لقيم جاهلية مقيتة من شأنها أن تعطّل طاقاته، وتشُلّ حركته، وتسلبه حيويّته ونشاطه، ولذا فقد كانت هذه القيم سبباً مباشراً في تخلّف ذاك المجتمع وركوده وسلبيّته، ولعل من أشد تلك القيم الجاهلية قتامةً بعد الشرك بالله، قيمة –أو قل لا قيمة– احتقار العمل وازدراء أصحاب الحِرف اليدوية والمزارعين والفلاحين.

ولعل من الروايات التاريخية الكثيرة التي وصلتنا، والتي تشير إلى هذا الاحتقار المتوارث للعمل والإنتاج آنذاك أنّه بينما كان أبو جهل يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن طعنه ابنا العفراء، قال لابن مسعود قبل أن يجهز عليه: "فلو أن غير أكّار قتلني" البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً، ح3795[56]، متمنياً بذلك لو أن غير مزارع أو فلّاح قام بقتله، لأنه يعتبر ذلك منقصة بحقه ومهانة له!

ومن ذلك أيضاً أن أهل قريشَ كانوا يسمّون الرقيق والعبيد[57] بأسماء لها صلة بالزراعة والفلاحة والإنتاج، فعن سمرة قال: (نهى رسول الله ﷺأن نسمي رقيقنا أربعة أسماء أفلح ويساراً ونافعاً ورباحاً) أبو داود، سنن أبي داود، باب: في تغيير الاسم القبيح، ح4961[58].

"ولعلّ من الآثار المعاصرة الواضحة لهذا الاحتقار العتيق العميق الجذور، هو استعمالنا لكلمة (مهنة) بمعنى عمل أو وظيفة، أو حتى حرفة، وجذرها الأصلي مرتبط بالهوان والمهانة"[59].

وعلى العموم فإنه لم ينج من هذا الازدراء –على ما يبدو– غير عملين هما: الرعي والتجارة، فأما الرعي فإنه يبعث بطبيعته على الخمول والدعة وحتى النوم، وأما التجارة فهي تجارة يقتصر فيها دور العربي على لعب دور الوسيط أو السمسار الذي يربح من فرق الأسعار من سوق لأخرى، وسواءً بالرَّعي أو بهذه الصورة من التجارة فإن العربي يحصل على ربح وفير دون عمل حقيقي، وعندها فإنه سيحتقر العمل بالأيدي دون أدنى شك[60].

والحاصل أنه في هذا المجتمع الاستهلاكي الذي يحتقر الزراعة والحرف اليدوية، تنزل قصة يوسف ﷺ حاملة معها نموذجاً لمجتمع إنتاجي زراعي، يقصده جميع من حوله حتى في سنوات الجوع والقحط، ويدير عملية الزراعة والإنتاج فيه رجلٌ جاء من البدو وتأقلم مع هذا المجتمع الجديد وشكّل إضافة نوعية فيه، وهو ما يسهم – إلى حدٍّ بعيد – في تغيير الصورة النمطية والنظرة الدونية للعمل والزراعة والإنتاج، ويفتح آفاقاً رحبة لإمكانية الانخراط الفعلي في مجتمعات زراعية، بل يهيّء النفوس ويمهد الطريق لذلك أيضاً.

وتعكس الرؤيا التي رآها الملك وما أعقبها من جهود زراعية مضنية تلك الحالة الإنتاجيّة التي امتاز بها ذاك المجتمع، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾[يوسف: 43].

وقال أيضاً: ﴿ **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[يوسف: 46-49].

ومن ناحية أخرى فإن القصة تربط بين الحركة الإنتاجية والزراعية الدائبة وبين النشاط في حركة السوق والرواج التجاري، الأمر الذي يظهر في القصة من خلال القوافل التجارية القادمة إلى مصر والآيبة منها.

المطلب الثامن: المبادرة في قصة يوسف عليه السلام:

تعتبر المسارعة إلى تحمل المسؤولية، والمبادرة إلى فعل الخير من أظهر صور الإيجابية والفاعلية لدى الأفراد، والقصة الكريمة تبيّن لنا كيف كان يوسف عليه السلام مثالاً يحتذى في المبادرة إلى فعل الخير دونما تلكّؤ، ودون أدنى اتكال على أحد أو انتظار أمر من أحد، ومن ذلك:

أولاً: مبادرته عليه السلام إلى تحمل المسؤولية، وطلبه للولاية[61] حين رأى في نفسه الأهليّة للقيام بأعبائها، في حين أنه كان يرى فيمن يتولّاها قبله عدم الأهلية للقيام بذلك، سيما وأن الدولة مقبلة على مرحلة صعبة جدّاً توشك فيها على الانهيار، ما لم يتم إدارة المرحلة بكفاءة وفعاليّة واقتدار، وفق خطّة طوارئ محكمة من أجل الخروج بالدولة من تلك الأزمة، ولا شك أن من رسم معالم هذه الخطة – أعني سيدنا يوسف – هو الأقدر على إدارة تنفيذها.

ثم إن سيدنا يوسف عليه السلام كان قد رأى بأم عينه أن عزيز مصر لا يراعي مصالح الناس، فقد عانى يوسف عليه السلام من ويلات الظلم بنفسه حين زَج به في السجن بعد وضوح جميع الآيات الدالة على براءته: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**﴾[يوسف: 35].

أضف إلى ذلك أنه لا بد لكل من يسعى إلى إحداث التغيير، أن يسعى إلى امتلاك الأدوات التي تعينه على إحداث هذا التغيير بالفعل وفق طبيعة الظرف الذي يعيش فيه؛ ولذلك كله فإن سيدنا يوسف عليه السلام لم يتوان في ترشيح نفسه لتحمل المسؤولية حين سنحت له الفرصة المواتية لذلك، فبادر إلى عرض خدماته -وفق السياق الذي بينته- قائلاً: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[يوسف: 55].

ثانياً: تخبرنا القصة بأن رسول الملك حين قدم إلى يوسف عليه السلام في محبسه، لم يطلب منه شيئاً سوى تأويل رؤيا الملك: ﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: 46].

ولكن الحاصل أن يوسف عليه السلام لم يكتفِ بتأويل تلك الرؤيا فحسب، بل بادر من تلقاء نفسه إلى تقديم رؤيته وإرشاداته للخروج من الأزمة، مستشعراً جسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه المجتمع الذي يعيش فيه. وقد تمثلت رؤيته -الخارجة عن تأويل الرؤيا بطبيعة الحال- للخروج من الأزمة بالأمور التالية:

1- ضرورة مضاعفة الجهود في زراعة الأرض، ليتضاعف الإنتاج تبعاً لذلك: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً**﴾[يوسف: 47].

وتجدر الإشارة إلى أن الخطاب القرآني قد عبّر هنا عن الأمر بصيغة الخبر؛ فبدلاً من التعبير بصيغة (ازرعوا) جاء التعبير بصيغة ﴿**تَزْرَعُونَ**﴾، وهو ما يفيد المبالغة، يقول الإمام الفخر الرازي: "وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿**فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ**﴾[62].

قلت: وهو ما يشير إلى مدى حرص يوسف البالغ على مصلحة القوم، وإلى شدة خوفه عليهم وصدقه في النصح لهم كل ذلك من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يشير إلى ما ينبغي أن يكون عليه الحال من التفاني في الزراعة من أجل الخروج بالوطن من أزمته، وليس ثمة صورة للإيجابية أنصع من هذه الصورة.

2- ضرورة ادّخار الكميّة التي لا يأكلونها لحين قدوم السبع الشداد: ﴿**فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾ [يوسف: 47].

3- أرشدهم إلى تقنيّة فعّالة في تخزين الحبوب لمدة طويلة: ﴿**فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ**﴾.

4- أرشدهم إلى ضرورة التّقشّف وترشيد الاستهلاك في السبع الأُوَل: ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾.

وكما هو واضح فإن كلّ ما سبق خارج عن إطار الرؤيا التي طلب منه تأويلها، بل يندرج ضمن مبادرته لفعل الخير وإسداء النصح.

المطلب التاسع: الدور المحوري للإيمان في ضبط الانفعالات الوجدانية وتحقيق التوازن النفسي

توضح لنا قصة يوسف أثر العامل الإيماني والثقة بالله تعالى واستشعار معيته في إحداث الاتزان النفسي والرشاد السلوكي، بحيث يغدو الفرد أقدر على ضبط انفعالاته الوجدانية، وبالتالي أقدر على التعاطي السليم مع المواقف والأحداث، وكذلك أكثر صبراً على ما يكابده من مشاق الحياة وابتلاءاتها، يقول الدكتور فضل عباس معلقاً على قول الله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[يوسف: 15]: "ولا شك أن هذا الوحي سيكون الأساس الذي يحتفظ به يوسف فيما يمر به من أزمات، وما يعانيه من ضيق"[63].

والحقيقة أننا حين نتتبع أحداث القصة ونغوص في تفاصيلها وحيثياتها، فإننا نستنتج بأن الله ﷻ كان حاضراً على الدوام في فكر يوسف ويعقوب وشعورهما -عليهما السلام-، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في الربط على قلبيهما، وفي تخطي العقبات، والصبر على بنيات الطريق، وهو ما عبر عنه يوسف عليه السلام في آخر القصة، بعد انقشاع الظلمة وتحقيق النجاح، بقوله ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[يوسف: 90]، وهنا نجد بأن يوسف عليه السلام قد عدَّ ما بلغه من نجاح وما أكرمه الله به من تمكين نتاجاً للتقوى المقترن بالصبر، بل للتقوى الذي ينبثق منه الصبر كما هو واضح في الآية السابقة.

وعلى العموم، فإنه يظهر أثر العامل الإيماني في إحداث الاتزان النفسي وفي ضبط الانفعالات الوجدانية في عدة مواقف تعتبر أشد المواقف صعوبة في القصة، ومن ذلك:

<u>الموقف الأول</u>: حين تم إخبار يعقوب بأن الذئب قد أكل ابنه:

قال تعالى: ﴿ **وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[يوسف: 16-18] هنا، لا شك أن وقع الصدمة على يعقوب كان كبيراً، وأن الموقف الذي وضع فيه عليه السلام كان عصيباً، وقد كان من الوارد جداً أن يصاب بحالة من الهلع والاضطراب فيفقد توازنه، سيما ونحن نعلم مدى

حب يعقوب لابنه يوسف –عليهما السلام–، ونعلم كذلك الآمال العظيمة التي كان يعقدها يعقوب عليه، ولكن دخول العامل الإيماني إلى المعادلة أحدث انقلاباً لجميع تلك التوقعات، فغدا يعقوب في غاية الاتزان والصّبر والاحتساب على الرغم مما يعتصر قلبه من مشاعر الحزن والأسى.

ولعل مصطلح (الصبر الجميل) الذي ورد في الخطاب القرآني على لسان يعقوب ﷺ يشير إلى ذاك الاتزان النفسي والسلوكي الكبير الذي نتحدث عنه؛ حيث أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا يرافقه جزع[64] "ولا شكوى فيه لأحد سوى الله تعالى، ولا رجاء معه إلا منه سبحانه، ثم أضاف إلى ذلك قوله: **﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾** أي: والله تعالى هو الذي أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابني يوسف قد أكله الذئب"[65].

وكما كان للعامل الإيماني الدور الكبير في تصبير يعقوب ﷺ والربط على قلبه والمحافظة على اتزانه النفسي والسلوكي حين أخبره أبناؤه بموت ابنه يوسف كما رأينا، فقد حصل ذلك تماماً حين بلغه خبر احتجاز ابنه الآخر بعد سنين من تلك الحادثة: **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**[يوسف: 83].

ولنا أن نتخيل مدى الضغط الكبير والكمد الذي تحمَّله الأب المفجوع على فراق ابنه، والذي مكّنه من التعامل بكل هذا والاتزان طيلة هذه المدة، في الوقت الذي بدت عليه –على غير إرادة منه– اختلالات عضوية تمثلت بفقدان للبصر: **﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**[يوسف: 84–87].

الموقف الثاني: حين تعرض يوسف إلى المراودة من قبل امرأة العزيز:

قال تعالى: **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾**[يوسف: 23–24].

في هذا الاختبار الصعب وبالغ الحساسية، حيث ثوران العاطفة الجبليّة وجموحها، يكون للعامل الإيماني الدور الحاسم في كبح جماحها وفي عصمة يوسف من الانزلاق، ولا يتوقف الأمر هنا، بل يصل أثر إيمانه بالله ﷻ والتجائه إليه لدرجة أن يكون السجن أحب إليه من السلوك المنحرف الذي تميل إليه النفس وتتمناه: **﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**[يوسف: 33–34].

المطلب العاشر: أخلاق يوسف أداة هامة لفاعليته وتأثيره في محيطه:

إن وصفنا للصِّفات الأخلاقية بأنها إيجابية يتأتّى من كونها مؤثرة في نفسية وسلوك الأفراد الذين يحملونها بحيث تقودهم نحو الفاعلية في دروب الخير والعطاء، وكذلك تجعلهم أكثر تأثيراً في محيطهم ومجتمعاتهم، ذاك أن الأخلاق الحميدة تجعل الفرد أكثر قبولاً عند الناس وأقرب إلى قلوبهم وبالتالي أكثر تأثيراً بهم، وبالتالي فإن مساحة التأثير وفرص التغيير أمامه تكون كبيرة، بخلاف صاحب الصفات السّلبية، فهو مظنة البغض من الآخرين، وبالتالي عادة ما يتم النّفور منه وعدم تقبله، وهو أمر يصدّقه الواقع الاجتماعي.

وقد عقد ستيفن ر. كوفي فصلاً كاملاً في كتابه "العادة الثامنة" يوضِّح فيه أثر الأخلاق في تحقيق الفاعلية والتأثير في

الآخرين، وأورد في هذا الفصل دراسة ميدانية قام بها هو ورفاقه، شملت 54 ألف شخص، سألوهم فيها عن الصفات الأساسية في القائد الفعّال، كانت الاستقامة الأخلاقية على رأس تلك الصفات جميعاً.(66)

وقصة يوسف عليه السلام تطالعنا بالمنظومة الأخلاقية الراقية التي كان يحملها وينبثق منها يوسف عليه السلام، والتي كان لها أكبر الأثر في فاعليته وتأثيره بمن حوله، ومن ذلك:

1- تسامحه الكبير مع إخوته على الرغم من كل ما ارتكبوه بحقه: ﴿**قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[يوسف: 91-92]، الأمر الذي كان له أثر بالغ في نفوسهم، ودعاهم إلى الرجوع والاعتراف بما اقترفوه، وهو ما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿**قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[يوسف: 97].

قلت: ولعل مدى تأثر النبي ﷺ بهذا الموقف الإيجابي، ومدى تأثير هذا التعامل الأخلاقي بالناس يظهر جلياً فيما رواه كتّاب السير من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قد استدعى هذا الموقف يوم فتح مكة حين سألهم: "ما تقولون وما تظنون؟" فقالوا نقول أخ وابن عم حليم رحيم، فقال رسول الله ﷺ أقول كما قال يوسف: ﴿**قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام"(67).

2- عفته وطهارته، حيث عرضت عليه امرأة العزيز نفسها، بل راودته كي يستجيب لذلك، وهي صاحبة المنصب والجمال، ولكنه أبى وثبت أمام جميع تلك الإغراءات، قال تعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[يوسف: 23]، وهو الأمر الذي ساهم إلى حدّ كبير في ازدياد إعجاب الملك به وتمكينه بعد أن ثبتت براءته.(68)

3- وفاؤه لمن ربّاه وأحسن مثواه، قال تعالى: ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[يوسف: 23].

4- كرمه وإحسانه، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾[يوسف: 88].

وقال أيضاً: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[يوسف: 36].

وقال أيضاً: ﴿**قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[يوسف: 78].

المطلب الحادي عشر: تصالح يوسف مع ذاته وانحيازه للصالح العام:

لقد كان الظّلم الذي تعرّض له يوسف عليه السلام في مصر كبيراً، حيث اتهم زوراً وبهتاناً بعرضه وشرفه، وزجّ به في السجن بعدما تبيّن لهم جميع الآيات الدالة على براءته، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**﴾[يوسف: 35].

هنالك في السجن، حيث يقبع يوسف عليه السلام وراء القضبان غريباً مظلوماً، تأتيه الفرصة المواتية للانتقام من تلك الدولة التي وقع عليه فيها ذاك الظلم العظيم: ﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: 46]، والحقيقة أن كل ما كان عليه أن يفعله حتى ينتقم هو أن يكتم عنهم ما علم من شأن الرؤيا الخطيرة التي رآها الملك، والتي طُلِب منه تأويلها، إنها الرؤيا التي تحمل بين طياتها الخطر الداهم الذي يهدد الوطن وينذر بوقوع الكارثة، فالحال أن سبعاً شداداً من السنين قادمة ولا يعلم أحدٌ بمقدمها إلا هو عليه السلام.

ولكن يتبين لنا من خلال القصة أن يوسف عليه السلام وهو يحمل لواء الخير والإصلاح – كان يتمتع بقدر كبير من التوازن الداخلي والتصالح مع ذاته ومع الآخرين، وأنه ما كان ليصدر في أفعاله من احتقانات داخلية أو حسابات شخصيّة؛ ولذلك كله فإن يوسف عليه السلام قد سارع إلى تأويل رؤيا الملك محذراً إياهم من الكارثة التي تنذر الرؤيا بوقوعها، ثم إنه لم يكتف بتأويل الرؤيا فحسب، بل ضمَّن ذاك التأويل – كما أسلفت – رؤيته للخروج بالوطن من تلك الأزمة، كل ذلك – طبعاً – مع كونه يقبع في تلك اللحظة ظلماً في سجن الدولة التي تحتاجه الآن إذ تتعرض لأزمة كبيرة: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[يوسف: 47–49].

ويعزّز ما سبق أن يوسف عليه السلام قد سارع إلى تأويل رؤيا الملك مع كون رسول الملك الذي جاء يستفتيه هو أحد الفتيين اللذْين أوّل لهما يوسف من قبل رؤيتيهما في السجن، والذي طلب منه يوسف –بطبيعة الحال– أن يشرح للملك حاله ويذكر عنده قضيته بعد خروجه من السجن؛ إذ هو ساقي الملك كما نعلم، ولكن ما حدث هو أن ذاك الفتى لم يتذكر يوسف البتة، بل ألهاه نعيم القصر وبريقه على مدى بضع سنين، لم يتذكر يوسف على الرغم من صحبته له في السجن وعلى الرغم من المعروف الذي أسداه له يوسف هناك، لم يتذكر يوسف إلا حين احتاجه مرة أخرى ولغاية شخصية تعزز مكانته عند الملك، والحقيقة أن هذا الأمر كان كفيلاً أن يجعل يوسف عليه السلام يعرض عنه وألا يجيبه إلى طلبه، ولكن هذا ما لم يحدث بطبيعة الحال، ذاك أن يوسف –كما قلت– كان يتمتع بقدر كبير من التصالح مع الذات ومع الآخرين، ولم يكن يصدر في تعاملاته مع الآخرين انطلاقاً من حسابات شخصية ضيقة، وهو فوق ذلك كله صاحب رسالة إصلاحية تحركه ومنظومة أخلاقية تضبط حركته. ويعقب الدكتور فضل عباس على هذه الحيثية بقوله: "ونلحظ أن النفوس الكبيرة تنسى أو تتناسى كثيراً من حظوظها، لأن لها عناية بما فيه خير الآخرين وصلاحهم، وها نحن لم نسمع كلمة من يوسف عليه السلام فيها شيء من التأنيب، بل العتاب لذلك الساقي"(69)

ولعل من أعمق الأفكار التي تؤديها القصة الكريمة، إن إيجابية الفرد تجاه الجماعة لا تعني سلبيته تجاه ذاته، وهو المعنى الذي نستلهمه من أن إيجابية يوسف عليه السلام في تعاطيه مع رؤيا الملك وفاعليته في دفع الخطر عن الوطن الذي يعيش فيه، قد رافقها سعي حثيث منه لتبرئة ساحته ورفع الظلم عن نفسه، وذلك حين اغتنم إعجاب الملك به والإرسال في طلبه بعد أن أوّل له رؤياه، فأبى أن يخرج من السجن معلناً اعتصاماً مفتوحاً داخله لحين فتح ملف قضيته وإجراء تحقيقات جادة بالتهمة التي رُمي بها قبل بضع سنين، وزُجَّ به في السجن استناداً إليها، وهي – بلا شك – وسيلة ناجعة من شأنها أن تحيي القضية بعد مواتها وتثيرها إعلامياً بعد أن طواها الكتمان قبل بضع سنين: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾[يوسف: 50].

ولنا أن نتخيل المدة التي أمضاها يوسف عليه السلام معتصماً في سجنه لحين تم فتح ملف القضية ولملمة أحداثها واستدعاء اطرافها بعد كل هذه السنين، وبالفعل فقد مثل النسوة بين يدي الملك: ﴿**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[يوسف: 51–53].

وهكذا خرج يوسف من السجن على أساس ثبوت براءته من التهمة التي أسندت إليه، لا على اعتبار أنه قد عُفي عنه أو أنهى محكوميته، الأمر الذي جعل الملك يزداد إعجاباً به وإكباراً له: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ**

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: 54].

وهنا يغتنم يوسف عليه السلام هذا الموقف ويسارع إلى طلب الولاية ليتسنى له من خلالها ممارسة رسالته الإصلاحية وإنقاذ الوطن من السنوات الشداد المقبلة عليه: **﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾**[يوسف: 55-57].

المطلب الثاني عشر: الأمل في حياة يعقوب عليه السلام:

يمثل يعقوب عليه السلام كما تصوره القصة الكريمة – نموذجاً حيّاً، بل مدرسة في كيفية المحافظة على جذوة الأمل مشتعلة في النفس على الرغم من جميع تلك العوارض والأزمات التي نمرُّ بها، والتي عادة ما تدعونا إلى اليأس والإحباط، وبالتالي إلى السلبية والاستسلام في نهاية المطاف.

إن الشعور باليأس كفيلٌ إن هو تمكّن من الإنسان أن يعطّل طاقاته ويشل قدراته، ويجعل منه جثة هامدة تمشي على الأرض، "فاليأس مرضٌ قاتل، بل وباء مستشر فتاك، ينتشر كما الإيدز، يسلب مناعة الأفراد كما المجتمعات، فيجعلها عرضة للموت والاندحار في أقل ضربة أو هزة، إنه اليأس، السّلبية العقيمة التي تصيب حتى أصحاب الشهادات والأفكار فيفرّون بشهاداتهم إلى الخارج، أو بأفكارهم إلى الداخل، تاركين في كلِّ الأحوال مجتمعاً وواقعاً جديرين بالتغيير"(70)، ولذلك كله فقد وجدنا يعقوب عليه السلام ظلَّ محافظاً على جذوة الأمل مشتعلة في نفسه بالرغم من كل ما كان يعانيه من ألم فراق ابنه يوسف ومن ثم فقدانه لابنه الآخر فيما بعد، والآيات التالية تبين طرفاً من ذلك:

قال تعالى: **﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾**[يوسف: 18].

وقال تعالى: **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** [يوسف: 83].

وقال تعالى: **﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**[يوسف: 86-87](71).

وبحسب الدكتور أبو موسى فإنه تتجلى الاستعارة في هذه الآية في قوله: **﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** [يوسف: 87]؛ أي لا تقنطوا من فرجه تعالى وتيسيره وتنفيسه، وأصل معنى "الرَّوْح" بالفتح "التنفيس"، يقال: أراح الله الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفرج، وفسر "الروح" بالرحمة على أنه استعارة من معناها المعروف؛ لأن الرحمة سبب الحياة كالروح، وإضافتها إلى الله لأنها منه ﷻ(72).

ولعل ما يفسر لنا ذاك الأمل الكبير الذي تحلى به يعقوب عليه السلام ولازمه طوال هذه السنين أنه نابع بالأساس من إيمانــه العميق بالله تعالى وثقته المطلقة به سبحانه، وهو ما عبّر عنه يعقوب عليه السلام بقوله: **﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**[يوسف: 87]، بمعنى أنه كان يعدُّ اليأس صنو الكفر كما أن الأمل صنــو الإيمان؛ ولا غرابــة في ذلك، فإن من نفد رصيده من الأمل فقدْ فقدَ دواعي الحياة والإحساس بها، وبالتالي فقد الدافع للفاعلية فيها، وتنكّب لوظيفته في عمـران الأرض والاستخلاف فيها، وهو أشبه ما يكون بمن حكم على نفسه بالموت قبل أن يموت، وهي صورة قاتمة من صور الانتحار!

المطلب الثالث عشر: دور إدارة المشاعر وتوجيهها في صناعة الفاعلية:

تعدُّ المشاعر والانفعالات الوجدانية بمثابة طاقة هائلة كامنة في نفوسنا، ومن هنا كان لا بد من حسن إدارتها وتوظيفها وتوجيهها على النحو الذي يجعل منها دافعاً لتحقيق النجاحات لا معيقاً لتحقيقها، ودافعاً لتجاوز الأزمات لا معمّقاً لها[73]، وبخلاف ذلك فإننا سنبقى على الدوام عرضة للفشل مع كل حدث نمر به، ومع كل موقف نتعرض له، ومع كل شعور نشعر به.

وقصة يوسف عليه السلام تبين لنا في غير موقف كيف يمكننا أن نستثمر مشاعرنا ونديرها على نحو فاعل منتج، وأذكر من هذه المواقف التي تعرضها القصة في هذا المجال، موقف المجتمع المصري حين شعر بالخوف من الخطر الداهم الذي يحدق به ويهدد مستقبله ووطنه.

لقد كان استشعار المصريين لذاك الخطر الداهم –المتمثّل بالسبع الشداد– دافعاً لهم إلى الحذر منه والنشاط في تلافي أضراره، بدلاً من الرضوخ والاستسلام لوقوعه، فما كان منهم إلا أن حثّوا الخطى، وضاعفوا الجهود في الزراعة والإنتاج، بغية تخزين ما يؤمن لهم قوتهم حينذاك ويخرجهم من أزمتهم، وقد رافق ذلك أيضاً أمراً هامّاً يظهر عظيم إرادتهم، يتمثل بالتّقشّف وترشيد الاستهلاك، قال تعالى: **﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾**[يوسف: 47–49].

الخـاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، فإنه وبعد الانتهاء من هذه الدراسة لا بد من عرض أهم ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائـج:

1- الإيجابية: هي حالة من الفاعلية الخيّرة، تخلقها مجموعة من العوامل الفكرية والنفسية المترابطة والمتفاعلة معاً بشكل ديناميكي، والتي تؤدي إلى الانبعاث الذاتي نحو الفعل والتعاطي السليم مع المؤثر، وإلى استثمار المتاح من القدرات والطاقات والمعطيات بغية تحقيق أفضل النتائج تأثيراً وتغييراً.
2- للإيجابية أهمية بالغة وآثاراً عظيمة في حياة الأفراد والمجتمعات؛ إن كان على صعيد صحتهم البدنية والنفسية أو على صعيد قدرتهم على التعامل مع الأزمات، أو على صعيد تحقيق الأهداف أو غير ذلك.
3- يتضمن الخطاب القرآني منهجاً يحوي مجموعة من الأساليب تؤدي دوراً بارزاً في صناعة الإيجابية في حياة الأفراد والمجتمعات.
4- تعد القصة القرآنية من أبرز الأساليب التي استخدمها الخطاب القرآني في بناء عنصر الإيجابية.
5- لقد تضمنت قصة يوسف عليه السلام مجموعة كبيرة من الأحداث والمواقف التي تحمل معاني الإيجابية والفاعلية وتعززها.
6- لقد كان واقع نزول سورة يوسف عليه السلام وترتيب نزولها بعد سورة هود متسق تماماً مع مضامين السورة بما تبثه من روح الأمل وبما تحمله من رسالة الإيجابية.

ثانياً: التوصيات:

1- توصي الدراسة بإيلاء الجانب النفسي مزيداً من الاهتمام في الدراسات القرآنية، سيما عند تناول موضوع القصص القرآني.
2- توصي الدراسة أن يتم إجراء دراسات مماثلة حول قصص القرآن الأخرى، سيما قصص الأنبياء.

الهوامش:

(1) سيد قطب الشاذلي (ت 1966م)، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، بيروت، دار الشروق، 1982م، (ط7)، ص151

(2) أحمد خيري العمري، **البوصلة القرآنية**، دمشق، دار الفكر، 2011م، (ط5)، ص161-272.

(3) محمد بن حبان، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1993م، (ط2)، ج11، ص5، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(4) حيث إننا إذا نحَّينا الياء والتاء من آخر الكلمة تصبح الكلمة (إيجاب) المنقلبة عن (إوجاب)، والتي هي مصدر صريح للفعل (أوجب).

(5) انظر: محمد بن مكرم بن منظور (ت 711هـ)، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1968م، (ط)1، ج1، ص793.

(6) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص793.

(7) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص793. وانظر وكذلك: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزبيدي (ت 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الستار أحمد وآخرون، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية (المجلس الوطني للثقافة والفنون)، 1385هـ، (ط2)، ج4، ص333.

(8) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (279هـ)، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل (سنن الترمذي)**، المحقق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م، (ط)، ج1، ص603، كتاب الصلاة، باب صلاة الحاجة، ح479، قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب وفي إسناده مقال". وقال الشيخ الألباني: "ضعيف جداً".

(9) قلت: من هذا القبيل قوله ﷺ: "من صلى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب". الترمذي، الصحيح الجامع (سنن الترمذي)، كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الجنازة والشفاعة للميت، ح1028، ج3، ص347، قال الشيخ الألباني: "ضعيف مع اختلاف في اللفظ". ومن ذلك قوله ﷺ: "ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه فقد أوجب". محمد بن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بليان، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء، ح1050، ج3، ص325، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده قوي".

(10) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص793.

(11) سعدي أبو الحبيب (ت 1988م)، **القاموس الفقهي**، دمشق، دار الفكر، 1988م، (ط2)، ج1، ص371.

(12) انظر: **لسان العرب**، ج1، ص793.

(13) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817هـ)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العسرقوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2005م، (ط8)، ص141.

(14) الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، ص141.

(15) إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرون، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، استنبول، دار الدعوة، 1989م، (ط2)، ج2، ص1012.

(16) الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج4، ص333.

(17) دانييل جولمان: عالم نفس أمريكي معروف، ولد في كاليفورنيا عام 1946م، درس الدكتوراة في جامعة هارفارد، وصار محاضراً فيها، له مؤلفات عديدة في علم النفس (14 مؤلفاً)، يبقى من أهمها كتاب (الذكاء العاطفي) واسع الانتشار، والمترجم إلى قرابة أربعين لغة، والأكثر مبيعاً في كثير من دول العالم لسنوات عدة.

(18) انظر: جولمان دانييل (1998م)، **الذكاء العاطفي**، ترجمة: ليلى الجبالي، الكويت، عالم المعرفة، لعام2000م، (ط1)، ص21.

(19) تأسس علم النفس الإيجابي (Positive Psychology) عام 1998م، على يد عالم النفس الأميركي البروفسور مارتن سيليغمان مدير مركز علم النفس الإيجابي في جامعة بنسلفانيا الأميركية، وأصبح هناك حالياً اهتمام متزايد بهذا العلم، حيث تم تأسيس العديد

من الأقسام والمراكز وإجراء الدراسات العلمية وتنظيم المؤتمرات المتخصصة حول العالم، التي تعني بهذا العلم وتطبيقاته المهمة في العديد من المجالات.

(20) صفات سلامة، **دعوات متزايدة لإدخال علم النفس الإيجابي في مجالات العمل**، جريدة الشرق الأوسط، لندن، عدد 11910، بتاريخ الجمعة 8 يوليو 2011م.

(21) وتنص معادلة السعادة التي كونها مؤسس هذا العلم مارتن سيلجمان أن:

(مستوى السعادة = حدود الاستعداد الوراثي + الظروف الحياتية + العوامل التي تحت سيطرتك).

ونلاحظ أن هذه المعادلة تضمنت الاستعدادات والمقومات الكامنة في الإنسان، وكذلك الظروف التي تمر به والتي تنتظر الكيفية التي يتعاطى فيها معها، وكذلك الأمور التي بإمكان الإنسان أن يسيطر عليها ويسخرها لمصلحته في هذا الكون، وهي كما نرى معادلة جامعة، وتتماهى مع فكرة محورية في علم النفس الإيجابي مفادها أن ما يحدّد نجاحنا أو فشلنا، شقاءنا أو سعادتنا، ليس الظروف التي نمرّ بها بقدر ما هو كيفية تعاطينا وتفاعلنا مع تلكم الظروف.

(22) من أبرز علماء النفس الإيجابي: مارتن سيليغمان و ميهالي وبيترسون وأدينير.

(23) محمد السعيد أبو حلاوة، علم النفس الإيجابي، ماهيته ومنطلقاته النظرية وآفاقه المستقبلية، من إصدارات مؤسسة العلوم النفسية، العدد 33 – لعام 2014م، ص12.

(24) انظر: إبراهيم كشت، مقال: الإيجابية سبق ومبادرة وإنجاز، **صحيفة الرأي الأردنية**، عمان، عدد: 2011/12/6م.

(25) جولمان دانييل (1998م)، **الذكاء العاطفي**، ترجمة: ليلى الجبالي، الكويت، عالم المعرفة، لعام2000م، (ط1)، ص132.

(26) إبراهيم كشت، مقال: الإيجابية سبق ومبادرة وإنجاز، **صحيفة الرأي الأردنية**، عمان، عدد: 2011/12/6م.

(27) مارتن. إي. بي. سيجمان، السعادة الحقيقية، ترجمة: مكتبة جرير، السعودية، مكتبة جرير، 2006م، (ط1)، ص88-93.

(28) انظر: قطب، **خصائص التصور الإسلامي**، ص151.

(29) وهبة بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق، ، دار الفكر المعاصر، 1418هـ، (ط2)، ج14، ص188.

(30) علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (ت 885هـ)، **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، ط2، م12، دار إحياء التراث العربي، ج9، ص178.

(31) دلالة تنكير كلمة (خير) في الآية التي حوت هذا المثل تشير إلى هذا المعنى.

(32) وما يدرينا لعلَّ تلك العبودية – التي يعمل فيها لحساب سيّده – هي أساس المشكلة، إذ تجعل منه عديم الرسالة والفكرة، بليد المشاعر والأحاسيس، فاقد الهدف والغاية، وبالتالي مسلوب الدافعية، عديم المبادرة، خائر القوى! نعم، فالعبودية – بصورها المختلفة – إحدى أهم القيود التي تكبل الإنسان وتجعله كما رأيت!

(33) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج11، ص590.

(34) ارجع إلى الصفحة التاسعة من هذا البحث.

(35) أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني (ت 421هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م، (ط1)، ج2، ص1057. وديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس المتوفى 231هـ.

(36) وأجرى فريق البحث بجامعة تكساس تجارب على 1558 من كبار السن لبحث ما إذا كانت هناك علاقة بين الأحاسيس الإيجابية وبداية مرحلة الوهن، وفي بداية الدراسة قبل سبع سنوات كان جميع المتطوعين للمشاركة في الدراسة في صحة جيدة، وقام الباحثون بقياس تطور أعراض الشيخوخة عند المشاركين من خلال قياس فقدانهم للوزن والجهد وسرعة السير وقوة قبضتهم، وتوصل الباحثون إلى أن المشاركين الذين يحملون رؤية إيجابية للحياة كانوا أقل عرضة لأعراض الوهن من غيرهم، وقد توقّع

الباحثون بأن المشاعر الإيجابية قد تؤثر بشكل مباشر على الصحة عن طريق تغيير التوازن الكيميائي في الجسم، وربما كان السبب في هذه الصلة هو أن التوجه المتفائل يساعد في تعزيز صحة الإنسان من خلال ترجيح نجاح هؤلاء الأشخاص في الحياة.

(37) دراسة بعنوان: "**السلوك الإيجابي يؤخر أعراض الشيخوخة**"، موقع بي بي نيوز أونلاين، 2004/9/13، رابط المقال: http: .//news.bbc.co.uk/hi/arabic/sci_tech/newsid_3652000/3652066.stm

(38) **المصدر السابق**.

(39) فكما تبيّن بعض الروايات الواردة في كتب علوم القرآن والتفاسير التي عنيت بالترتيب الزماني لنزول القرآن أن سورة الإسراء نزلت وأعقبها سورة يونس ثم سورة هود ثم سورة يوسف، انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ط، م2، ج1، ص79. وعلى الراجح من أقوال المؤرخين أن حادثة الإسراء أعقبت عام الحزن الذي كان في العاشر من البعثة.

علماً بأنه ورد في زمن وقوع حدوثة الإسراء أربعة أقوال أوردها ابن كثير في **البداية والنهاية** ج4، ص269، وهي: 1. في أول البعثة. 2. في العاشر للبعثة. 3. قبل الهجرة بسنة. 4. قبل الهجرة بستة أشهر.

(40) أخرج الحاكم في المستدرك أن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: (لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا قد آمنوا به و صدقوه ...). (**مستدرك الحاكم**، ج3، ص81)، وقد ضعفه عند الذهبي وغيره.

(41) العمري، البوصلة القرآنية، ص216.

(42) **المرجع السابق**، ص15.

(43) انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، ط، م1، **أسرار ترتيب القرآن**، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ص96. وانظر كذلك: محمد عزت دروزة (ت 1984م)، **التفسير الحديث**، القاهرة، دار إحياء الكتب المعرفية، 1383هـ، (ط1)، ج1، ص15. وانظر كذلك: عبد القادر ملا حويش (ت 1398هـ)، **بيان المعاني**، دمشق، مطبعة الترقي، 1965م، (ط1)، ج3، ص170. وهي تفاسير عنيت بترتيب السور بحسب زمن نزولها.

(44) انظر: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (279هـ)، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل (سنن الترمذي)**، المحقق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م، (ط)، ج5، ص402. وصححه الألباني. سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360هـ)، **المعجم الكبير**، المحقق: حمدي بن عبد المجيد، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، 1994م، (ط2)، ج6، ص148.

(45) وقد ذكر الدكتور حسن باجودة أن دلالة التعبير بالفعل الماضي (رأيت) أن الطفل يوسف إنما أراد أن يقص -ببراءة- الرؤيا التي رأى دون أن يكون بطبعه شيء من اهتمام لما تدل عليه أو يترتب عليها. انظر: حسن باجودة، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، ص339.

(46) وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى ذاك الموقف الذي أرشد فيه يعقوب أبناءه -فيما بعد- ألا يدخلوا من باب واحد، وإنما من أبواب متفرقة، ثم مع كونه أرشدهم إلى ذلك أردف يوضح بأن الأخذ بالأسباب لا يعني أنك خارج على قدرة الله، ولا يعني كذلك انك لا تتوكل عليه: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[يوسف: 67].

(47) عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رُقًى كُنَّا نَسْتَرْقِي بِهَا وَأَدْوِيَةٌ كُنَّا نَتَدَاوَى بِهَا، هَلْ تُرَدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ». أخرجه **الحاكم في المستدرك**، كتاب الطب، ح8223. سكت عنه الذهبي. وله شاهد في معجم الطبراني.

(48) "قرأ حفص سبع سنين دأبا بفتح الهمزة و قرأ الباقون ساكنة الهمزة". انظر: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، **حجة القراءات**، تحقيق: سعيد الأفغاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1402هـ-1982م، (ط2)، ص359.

(49) محمد بن محمد أبو السعود (982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1411هـ، (ط2)، ج4، ص282.

(50) أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت 1420هـ)، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ، (ط3)، ج18، ص465.

(51) انظر: إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1984م، (ط1). وانظر كذلك: السمين الحلبي (ت 756هـ)، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، ج6، ص549.

(52) كما شكّلت الخسارة القاسية التي منيت بها اليابان في الحرب العالمية الثانية تحدّياً لليابانيين، فاستثارت طاقتهم واستفزّت فاعليتهم، وهو ما كان له أكبر الأثر في التفوق الياباني المشهود، وهو ما ألقيت عليه الضوء في المطلب الثاني من المبحث الثاني.

(53) وهذه النظرية استلهمها توينبي – كما يقول– من علم النفس السلوكي، وعلى وجه الخصوص من العالم كارل يونغ، وقد أورد هذه النظرية في كتابه **(دراسة للتاريخ)**، وهو كتاب موسوعي تأريخي، يتكون من أحد عشر جزءً، يتحدّث فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر، ويتّسم بالموضوعية، وبالمنهج العلمي، وقد ترجمه للعربية عالم الآثار العراقي الدكتور طه باقر.

(54) تجدر الإشارة هنا إلى أن الشوق الذي كان يملأ قلبيهما لمعرفة تأويل هاتين الرؤيتين يجعلهما أكثر إنصاتاً له واهتماماً بحديثه؛ إذ لو أنه أعطاهما سؤلهما منذ البداية ثم أراد أن يتحدّث معهما بالكلام آنف الذكر، لما أبدوا ذاك الاهتمام الذي أبدوه قبل أن يخبرهما بتأويل الرؤيتين. وقد أورد الإمام الرازي في تفسيره **مفاتح الغيب**، ج18، ص455. ستة أقوال أخرى للعلماء في المسألة.

(55) انظر: سيد قطب (ت 1412هـ)، **في ظلال القرآن**، بيروت – القاهرة، دار الشروق، 1412هـ، (ط17)، ج4، ص1988م.

(56) انظر: محمد بن اسماعيل البخاري (ت 256هـ)، **الجامع الصحيح المسند المختصر من حيث النبي وسننه وأيامه**، ج4، ص1474، قال الشيخ مصطفى البُغا في تعليقه على الحديث: (أكار) زرّاع وفلاح، وكان أهل مكة يستخفُّون بالزراعة، وكان الذين قتلوه من الأنصار أهل الزراعة.

(57) ولا تخفى النظرة الدونية للعبيد والرقيق في المجتمع الجاهلي!

(58) سليمان بن أشعث السجستاني، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومذيل بأحكام الألباني، بيروت، دار الكتاب العربي، (ط1)، ج2، ص708. قال الألباني: صحيح.

(59) أحمد خيري العمري، **البوصلة القرآنية**، دمشق، دار الفكر، 2011م، (ط5)، ص188.

(60) انظر: لا، ص190.

(61) وهذا الموقف –وفق سياقه وظروفه الموضوعية– لا يتعارض مع مسألة الزهد والورع. بل إن المصلحة تقتضي أن يقدم الإنسان نفسه في المجتمع الذي لا يتولى فيه المسؤولية الأكفياء.

(62) الرازي، **مفاتح الغيب**، ج18، ص465.

(63) فضل حسن عباس (ت 2011م)، **قصص القرآن الكريم**، الأردن، دار الفرقان، 2000م، (ط1)، ص383.

(64) انظر: الرازي، **مفاتح الغيب**، ج18، ص431.

(65) محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م، (ط1)، ج7، ص331. وانظر: محمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ)، **فتح القدير**، دمشق – دار ابن كثير، وبيروت – دار الكلم الطيب، 1414هـ، (ط1)، ج3، ص14.

(66) انظر: ر. ستيفن كوفي، **العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة**، ترجمة: ياسر العيتي، دمشق، دار الفكر، 2012م، (ط6)، ص206.

(67) أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، **الصَّحِيحُ من أحاديث السّيرة النبوية**، دار الوطن للنشر، 2011م، (ط1)، ص467.

(68) حيث أن الملك قد أبدى إعجابه به حين أوَّل له الرؤيا: **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾**، ثم بعد أن رفض الخروج من السجن ومقابلة الملك إلا بعد أن تم فتح تحقيق بالحادثة وثبتت براءته، ازداد إعجاب الملك به أكثر من ذي قبل **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾**[يوسف: 54].

(69) فضل حسن عباس (ت 2011م)، **قصص القرآن الكريم**، الأردن، دار الفرقان، 2000م، (ط1)، ص424.

(70) العمري، **البوصلة القرآنية**، ص179.

(71) قال الدكتور فضل عباس: "وهذا يذكرنا بقول جده إبراهيم ﷺ: **﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾**[الحجر: 56]". فضل حسن عباس (ت 2011م)، **قصص القرآن الكريم**، الأردن، دار الفرقان، 2000م، (ط1)، ص442.

(72) د. محمد أبو موسى، **التصوير البياني– دراسة تحليلية لمسائل البيان**، القاهرة، مكتبة وهبة، 1993م، (ط3)، ص207.

(73) وهو ما يسمى الذكاء العاطفي.